

بدء الأدب الحديث

إذا لم يبلغ الأدب في القرن الثامن عشر ما بلغه في القرن التاسع عشر من القوة والنضج فليس معنى هذا أن القرن الثامن عشر لم يظهر فيه ثمر أو شعر فالجبرتي مثلاً صاحب التاريخ المشهور ولد في منتصف القرن الثامن عشر وفي لبنان والشام وربما في غيرهما من بلاد العرب كالفراق ونحوه ظهر شيء من الشعر ولكن من الثابت أن هذا كله كان ضعيفاً فالشعر كان أكثره في تهنئة أو رثاء أو مدح أو في بعض الوصف ، تكاد الشاعرية تموت فيه وتقلب عليه صنعة لفظية .

وقد يكون من جملة الأسباب في ضعف الأدب في تلك الأيام بحسب رأي بعض المؤرخين قلة المدارس على أنه قد نشأت كتاتيب ومدارس صغيرة في الشام أو لبنان أما في مصر فقد كان فيها الأزهر ولكن الكتب التي كانت تدرس فيه كانت تخوض في العقائد والتوحيد والتصوف والفنم والصرف فالأدب على الشكل الذي نفهمه اليوم لم يكن له ظل .

وكما كانت المدارس قليلة كانت الكتب قليلة فالخطوط كانت بدلا من المطبوعات لأن المطابع لم تكثر الا في القرن التاسع عشر ولما جاء نابليون مصر جاء بأدوات مطبعية ولكنها لم تطبع كتباً ذات شأن .

على الرغم من ضعف الأدب وقلة المدارس والكتب ظهر كتاب في دواوين الحكومات في مصر والشام ولبنان كانوا يتولون الإنشاء على أيام الجزار والامير الشهابي ومحمد علي وابنه ابراهيم .

متى نشأ الأدب الحديث ؟

نشهد في هذا العصر حيرة في تحديد أولية الأدب الحديث لا بدءاً من الإشارة إليها قبل التعرض للموضوع .

سير بنا قريباً أن الأدب الحديث وفقاً لما قرره طائفة من المؤرخين ظهر بظهور نابليون في مصر أي في آخر القرن الثامن عشر وأول القرن التاسع عشر ولكن بعض المفكرين لم يروا لنابليون فضلاً في ذلك وإنما ردوا الفضل كله في بدء الأدب الحديث إلى محمد علي وحده ، ثم وقع الانقلاب الأخير في مصر وحدثت النقمة على محمد علي وأمرته فنزعت بعض الأفلام إلى تصوير محمد علي في أفتح صورة بحيث جعلوه لا فضل له في النهضة الحديثة وعلى هذا نكاد نضيع في مهاب مختلفة من الآراء على أنا صنعا لج موضوعنا في عزلة عن هذه المهاب على قدر الامكان .

نرجع إلى سؤالنا : متى نشأ الأدب الحديث ؟

ليس الجواب عن ذلك بسيط لأن الأدب الحديث نما في بيئات مختلفة نما في مصر ولبنان والشام والحجاز واليمن والعراق ، هذا إذا جاوزنا إفريقية فليس من الهين الإحاطة بميلاد الأدب في هذه البلاد كلها على أن النهضة بدأت في الشام ولبنان ومصر على نحو ما ذكره جرجي زيدان وامتدت منها إلى سائر الأطراف ، ففي كل بقعة من هذه البقاع آثار من الأدب في النثر والشعر ولكن ليس من البسير الكلام على هذه الآثار كلها ففي بعضها نموزنا أمور كثيرة نعيننا على التوضيح وكيف كانت الحال لا بدءاً قبل الشروع في دراسة الأدب الحديث من معرفة أوليته .

اعتاد أصحاب التاريخ الأدبي أن ينطلقوا في تحديد تاريخهم من أمر معين قد يكون هذا الأمر في بعض الأحوال ظهور دين جديد ، فإذا رجعنا إلى

أدبنا القديم وجدنا أن ظهور الإسلام كان بدء أدب جديد في العرب
قال ابن فارس في كتابه الصحاح :

« كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم
ونسائلكهم وقرايبهم فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت
ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات
زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فهني الآخر الأول » .

من هذا يتبين لنا أن الإسلام نقل العرب من حال إلى حال ، نقل تفكيرهم
وشعورهم وعواظهم وعاداتهم وأخلاقهم فحلب لهم تفكيراً جديداً وشعوراً جديداً
وعواطف جديدة وعادات جديدة وأخلاقاً جديدة فكان لا بد لهذه الحياة
من صبغ تفرغ فيها صورها ، هذه الصبغ الحديثة كانت بدء أدب حديث
في العرب .

قد يكون هذا الأمر أظهر الأمور في تاريخ أدبنا وإذا شئنا أن نبحث
عن أمور ثانية وجدنا في حرب العرب والروم على أيام سيف الدولة بدءاً لتزعة
جديدة في الأدب وان كان المؤرخون لا يبالون كثيراً في تاريخهم بهذه التزعة
التي صبغت حرب العرب والروم بصباغ ديني ظهر منه أثر قليل على شعر الشعراء
الذين أحاطوا بسيف الدولة ولكن الأثر الواضح الذي ظهر على شعر أولئك
الشعراء إنما هو الصباغ القومي فكانت كلمة العرب تملأ الشعر الذي قيل في تلك
الحروب وفي سيف الدولة نفسه فهذا الصباغ القومي قد يجوز أن يكون نزعة
جديدة من نزعات أدبنا القديم . وربما كانت حرب صلاح الدين والصلبيين
أظهر أثراً في الشعر من حرب سيف الدولة والروم فيصح الرجوع إلى الشعراء
الذين عاشوا على أيام صلاح الدين حتى نرى على شعرهم آثار تلك الحرب .
لقد عمدت إلى هذا المثل على ضعفه ولكنني إذا عمدت إلى أمثال ثانية
كانت بدء أدب جديد في تاريخنا وجدت منها أشياء كثيرة فقد تعودنا أن

نقسم عصور أدبنا القديم بحسب دولنا القديمة مثل دولة بني أمية ودولة بني العباس وان كانت الاعتراضات وردت على هذا التقسيم .

وإذا انتقلنا من أدبنا الى أدب آخر وجدنا أن المؤرخين يقسمون هذا الأدب أسماء مختلفة بحسب نزعات خاصة فالأدب الذي ظهر في فرنسا في القرن السابع عشر كان طابعه العقل فالعقل كان له في الأدب السلطان الأكبر فكانت غابة الكاتب أو الشاعر الإفصاح عن الحقيقة الخلقية . هذه النزعة كانت في الأدب الفرنسي بدء أدب حديث اصطلاحوا على تسميته الأدب المدرسي ولكن معناه يحملنا على تسميته أدب العقل .

لا ينبغي أن يستنتج من ذلك ان كل انقلاب في السياسة أو في الاجتماع أو في الدين أو في غير مظهر من مظاهر الحياة يصح أن يكون بدء أفق من الآفاق الأدبية فإذا أدى هذا الانقلاب الى أفكار جديدة وعواطف جديدة وشعور جديد تستلزم صيغاً حديثة غير الصيغ التي كانت مألوفة قبل الانقلاب كان الانقلاب بدء أفق جديد ولكنه إذا كان متمماً للحياة التي كانت قبله ولم يحدث فيه حادث فلا معنى لجملة بدء أفق جديد ، فإذا فرضنا أن شعراء دولة بني العباس استمروا في شعرهم في النقي بما كان يتقن به شعراء دولة بني أمية فلا يصح أن تكون دولة بني العباس بدء عهد جديد في الأدب ولكن اذا شهدنا أن النزعة القومية ضعفت في عهدنا وكثرت الشعبية وكثر التنقي بأثار الفرس والظمن على العرب لزمنا أن نعتبر الدولة العباسية بدء عهد جديد لأن الشعر العربي دخلته في عهدنا صيغ جديدة لم يكن لها أثر في الماضي .

لا نريد أن نتبسط في المقدمة وضرب الأمثال وانما نريد الوصول الى بدء أدبنا الحديث . أين بدء هذا الأدب في تواريخ أدبنا الحديث ؟

من هذه التواريخ تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو البسوعي ، اعترف المؤلف في مقدمة مؤلفه بأن اللغة العربية لبس لها تاريخ

أدبي حتى أحسن بهذا الأمر فئة من المستشرقين في فرنسا وألمانيا وانكثرة وروسية وإيطالية فألفوا بعض التأليف أو دعواها وصف العلوم العربية وتراجم أصحابها وقائمة كتبهم التي صنّفوها ولكن هذا كله لا يفني عن تاريخ الأدب شيئاً فان هذه التأليف كلها ليست إلا بواكير أعمال .

كتب الأب لويس شيخو في مجلة المشرق فصولاً في الآداب العربية في القرن الأخير تمهيداً لمن تحدّثه نفسه بوضع تاريخ أدبي وجمع هذه الفصول في كتاب مستقل كان تاريخ الآداب العربية من أول القرن التاسع عشر حتى ١٨٧٠ . لم أجد في هذا التاريخ إشارة إلى انقلاب كان بدء الأدب الحديث وإنما قال صاحبه : وراجت أسواق العلوم بعد كسادها حتى بلغت ما نراه اليوم من أمرها في ظل الذات الشاهانية أبد الله شوكتها .

أشار الأب شيخو في بدء تاريخه إلى الكتب والمخطوطات والمطابع في أول القرن التاسع عشر وإلى المنشئين في دواوين ولاية الدولة العثمانية في بلاد العرب وإلى بعض طوائف النصارى وتكلم على الآداب العربية في أوروبا في بدء القرن التاسع عشر .

ثم رجع إلى تفصيل الكلام على الأدب الحديث في أول القرن التاسع عشر فقال : كان افتتاح القرن التاسع عشر في أيام السلطان الغازي سليم خان الثالث . ثم تكلم على مصر في عهد محمد علي وعلى بعض الأدباء في غير مصر بصورة مختصرة ثم ذكر شيئاً من تراجمهم وآثارهم .

هذا شيء مجمل مما ذكره الأب لويس شيخو البسوعي في تاريخه : الآداب العربية في القرن التاسع عشر وإذا دخلنا في التفاصيل وجدنا أنه زاد في تاريخه أن دراسة اللغات الشرقية قويت في أوروبا من القرن الثاني عشر حتى عظمت حركة المستشرقين على نوالي السنين كما عظمت حركة الجمعيات الآسيابوية وفي أوائل القرن التاسع عشر طبعت كتب عربية في الآستانه ومصر وأكثر الذين

اشتهروا في تلك الأيام لم يتعلموا في مدارس منظمة بل نبغوا بتحصيهم الخاص مهتمين بنقطة من كتاب الدواوين .

أما جرجي زبدان فقد تكلم في تاريخه على العرب قبل بدء الأدب الحديث تكلم على العرب في مصر وسورية وذكر طائفة من الأدباء ثم انتقل الى الكلام على بدء الأدب الحديث فجعل هذا البدء سنة ١٧٩٨ وهي السنة التي دخل فيها نابليون مصر فقال في جملة ما قال : إن أبرز مظهر هذه النهضة تأثير أوروبية في هذا العصر .

إذا اهتمنا بما جاء في تاريخ جرجي زبدان من الكلام على المكتبات في بدء أدبنا الحديث وعلى المحلات والجرائد والجمعيات والتثليل والموسيقى وغير ذلك نجد بنا أن نهتم بالأدب ، شعره ونثره ، فقد أحصى زبدان في تاريخه فريقاً من الشعراء في مصر وسورية ولبنان وحتى في تونس وأتى على ذكر بعض الأدباء . لقد نجد في هذا التاريخ بعض نظرات عامة في الأدب الحديث وبعض تراجم مختصرة ولا تخلو هذه النظرات في بعض الأحيان من شيء من الصواب فإذا تكلم زبدان على الإنشاء وأشار الى ميل الكتاب الى السجع والبديع في أواخر العصر العثماني تكلم بعد ذلك على تأثير حضارة الغرب في الإنشاء فأشار الى ما كان للطبيعيات والرياضيات من تأثير في تعديل ميل المنشئين الى السجع والبديع وترغيبهم في مجرد الحقيقة ولم يغفل عن الإشارة الى تحدي الكتاب لأصاليب البلفاء من المتقدمين مثل ابن المقفع والجاحظ .

ونجد في كتاب صهير ألفه الياس أبو شبكة سماه «روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة» إشارة الى بدء أدبنا الحديث في مصر وسورية قال المؤلف : «جاء نابليون الى مصر في العام ١٧٩٨ وفي نفسه من الشوق الى نقض غبار القرون عن موطن الفراعنة ما فيها الى فتح طريق الهند وكان في ركابه طائفة من العلماء الأعلام ككونج وبرتوله وفوربه فما كاد يفتح القاهرة حتى أنشأ فيها

م (٣)

مؤسسة عليية ولي ادارتها جماعة من العلماء الدين رافقوه في حملته وكان عددهم مئة وثلاثة وأربعين بينهم العالم والأديب والفنان والطابع .
 أما بدء أدبنا الحديث في سورية فقد قال فيه أبو شبكة : « وان يكن بونابرت قد فشل في فتح سورية فقد تولى هذا الفتح مكانه أعلام الفرنسيين من رجال الأدب والعلم فمن ذلك الاحتكاك الجديد بين الشرق والغرب نشأ في نفوس أدباء فرنسا وشعرائها شوق ملح الى زيارة الشرق وعلى أثره نشطت حركة الرسائل التي كان لها الفضل الأكبر في تحويل الشرقيين الى منابع الثقافة الفرنسية» .

فهذا كلام واضح يدلنا على أن صاحبه جعل بدء الأدب الحديث في مصر دخول نابليون مصر وجعل بدء الأدب الحديث في سورية انتشار البعثات الغربية فيها .

أما جرجي زيدان فقد قال في النهضة في سورية :

« لكن نوراً ضئيلاً ظهر في سورية في أواخر القرن السابع عشر على أثر قدوم الإرساليات الدينية وانتشار الرهينات الكاثوليكية» .
 وقد نبغ في القرنين الأخيرين قبل هذه النهضة طبقة من العلماء أكثرهم من رجال الاكليروس واشتغل قسم منهم بالأدب واللغة والتاريخ .

على هذا الوجه يختلف بدء الأدب الحديث في سورية عن بدئه في مصر . هذا على وجه الإجمال ما يتصل بأولية الأدب الحديث فليس في الآراء التي بسطناها في بدء هذا الأدب شيء من الشطط ، فالذين يقولون ان الأدب الحديث نشأ قبل دخول نابليون مصر لا ينحرفون عن الحق الا أن الأدب كان ضعيفاً في شعره ونثره والذين يقولون ان دخول نابليون مصر كان فاتحة الأدب الحديث لا يقولون شططاً فان نابليون مهد في مصر سبيلاً الى تفتيح العقول على الرغم من أن غايته كانت الاستثمار فان مجيء العلماء معه قد أبقى

آثاراً في نواحي الفكر وإذا قلنا ان هذه الآثار قد انبسطت في زمن محمد علي قلنا حقاً لأن مصر اتصلت بالغرب عن طريق البعثات والرحلات .

والخلاصة ان لاتصال الشرق بالغرب في أوائل القرن التاسع عشر ونشوء المدارس الأجنبية في سورية ولبنان فضلاً عظيمياً في استنفاقة العقول من صراقتها فقد أنشئت الجامعة الأميركية في بيروت ثم الجامعة اليسوعية كما أنشئت مدارس وطنية وأجنبية وكثرت الجرائد والمجلات وفي مقدمتها المقتطف فقد ظهرت هذه المجلة العظيمة أول الأمر في بيروت ثم ضعفت حربة الرأي فنقلها أصحابها الى مصر وقد كان لها فضل عظيم في بلاد العرب من حيث تفتيح العقول والتمهيد لموضوعات العلم فقد كان أصحابها يسطون العلم وبعمومه ، كانوا يلبجأون الى أدق المباحث العلمية أو المحاضرات التي تلتقي في الغرب فيلخصونها بأصولهم العلمي السهل حتى تستقر في أذهان الناس والذين كانوا يطالعون المقتطف في تلك السنين كانوا خاصة الخاصة .

في القرن التاسع عشر اختبر الأدب والشعر والنثر وظهر كتاب كبار وشعراء كبار في مصر ولبنان وسورية أما في مصر فقد عنوا في صدر النهضة بالتعريب فنقلوا فئة من كتب الغرب الى لغة العرب ودرّسوها في المدارس وبعد أن نشأت الثورة العراقية في غضون القرن التاسع عشر كثرت في مصر المدارس الأجنبية والمجلات والجرائد والمطابع وطبعت كتب اللغة والتاريخ والأدب ودخل على الأزهر كثير من الإصلاح .

وكذلك في لبنان وسورية فقد كثرت المدارس الأجنبية وعكف الأدباء على اللغتين الفرنسية والانكليزية واقتبسوا عن أدبها فنقلت الى العربية روايات من القرن السابع عشر الفرنسي وانطلقت الأقلام في موضوعات الاجتماع فكتب الكتاب في الحرية والأخلاق وتعليم المرأة والقومية وغير ذلك ثم رحل فئة من رجال الأدب والفكر الى أوروبا فاشتد اتصال الشرق والغرب واطلع

كتاب الشرق على أخلاق بعض أمم أوروبا وعلى عاداتهم وأطوارهم وما آكلهم ومشاربهم وقابلوا بين الشرق والغرب في كثير من الأمور فانهكست آثار هذا كله على كتابتهم ومن أبرز الذين زاروا أوروبا أحمد فارس الشدياق فأدرك الأدب حتى إدراكه وثار بأدبه على كثير من أوضاعنا ، على جهل الحكام وضعف الثقافة ، وعادات الناس ، وجهل المرأة ، كما ثار على رجال الدين في لبنان ، وذهب مذاهب أبعد فمال الى الأدب المجرد في بعض كتاباته فصور أموراً لم يتعود أدبنا أن يصورها .

وجملة القول إن أدبنا الحديث نشأ عن اتصال الشرق بالغرب إما على أيدي المدارس الأجنبية في مصر ولبنان وسورية ودراسة اللغات الأجنبية وإما على سبيل الرحلات وكان نشوءه وقوته من أول القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا ولقد نشهد أصراً عجيباً في انتقاله من طوره الذي نشأ عليه الى الطور الذي قوي فيه أو نضج بعض القوة والنضج ، فان الذي يقابل بين بعض نماذج من المراسلات والمكاتبات الرسمية قبل القرن التاسع عشر وبعض بلاغات في صدر القرن التاسع عشر وبين آثار طائفة من كتاب القرن التاسع عشر وشعرائه لا يكاد يصدق أن الأدب قد تكامل في هذه الفترة من الزمن ، فقد غلب عليه في القرن الثامن عشر مجمع متخيف وتفكك ورخاوة ثم أصبح بعض الكتاب والشعراء في القرن التاسع عشر يتحدون أصاليب بلغاه كتابنا وشعرائنا المتقدمين كالجاحظ وابن المقفع وأبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم وبعضهم ظهرت على كتاباتهم آثار كتاب القرن الرابع كالحريري والبديع والخوازمي وبكاد يكون هذا الأمر أعجب أمور أدبنا في القرن التاسع عشر .

شفيق هيري

